طفولة الانسانية [1]

للكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

حضرات السادة والسيدات

أتحدث إلى حضراتكم الليلة عن طفولة الانسانية ، ولا أعنى بطفولة الانسانيـة تلك السن الباكرة التى مررنا بها جميعا فى مطلع حياتنا ، ولا بأطفال الانسانيـة تلك المخلوقات الصغيرة التى نراها كل يوم فى بيوتنا أو حول بيوتنا .

وإنمـا أعنى تلك الطفولة التى تلازم الانسان إلى ما بعـد الكهولة والشيخوخة ، بل تلازمه حتى يفارق الحياة ، وهى طفولة الروح أو طفولة الأخلاق .

ولكننا لا نستغنى عن الكلام فى طفولة السـن حين نتكلم فى طفولة الروح ، لأن الطفولتين تتشابهان فى خصلة واحدة، وهى أنهما تساقان إلى الخير بجزاء و إغراء ، وتدفعان عن الشر بجزاء و إغراء .

فالطفل سناً لا يتناول الدواء الذى يشفيه إلا إذا وعدته باللعبـة وقدمت له الحلوى ، ولا يمتنع عن الخطأ الذى يضيره ويسقمه إلا إذا لوحت له بالعصا أو الحرمان .

وكذلك الطفل روحا وخلقا تقوده إلى الفضـيلة بوعد وتذوده عن الرذيلة بوعيد ، ولو كان رجلا فى الروح والخلق لما احتاج إلى الوعد والوعيد .

طفل السن يلهب الرمد عينيـه وتريه القطرة التى تشفيه وتخفف الألم عنـه ، فيأباها ويصر على إبائها ، أو تبذل له المكافأة وتمنيه بالفرجة والمكافأة الحسنة .

ولكنه يصبح رجلا فيسعى إلى الطبيب بقدميه إذا رمدت عيناه ، ويبذل ثمن القطرة من ماله عن رضى وارتياح ، ولا يحتاج إلى أمر ولا وعد بجزاء .

وطفل السن تضنيه الحمى وتنهاه عن مفارقة الحجرة فلا يرضى ولا يصيخ إلى النصيحة وهو قادر على مخالفتها، ولا تزال به حتى تزين له الاعتكاف فى المنزل بالألاعيب التى تبثها من حوله والعلالات التى تعلل بها خياله وتشغل بها فراغ وقته عن التفكير فى اللعب والخروج .

ولكنه يصبح رجلا فيعتكف مختـارا ويغضب على من يفتح النافذة عليـه فى حجرته فضلا عن الخروج من الدار .

---

(١) نص الحديث الذى أذيع من محطة الاذاعة اللاسلكية .

فعمل المفيد النافع بجزاء هو الطفولة ، والامتناع عن الضرر الوبيل بجزاء هو الطفولة ، وقد ترى الرجل فى الخمسين أو الستين أو السبعين وهو طفل بهذا المعنى فى الحالتين .

أليس طفلا بهذا المعنى ذلك الرجل الذى لا يفعل الحسن الجميل إلا وهو ينتظر الأجر عليه ؟ ولا ينتهى عن العيب الذميم ألا وهو يخشى ما وراءه من عقاب ؟

أليس طفلا ذلك الرجل الذى يطلب المآثر لأرباحها وغنائها ولا يطلبها لذاتها ؟

أليس طفلا ذلك الرجل الذى ينتهى عن النقص لأنه مهدد بالعاقبة السيئة ولا ينتهى عنه لأن الكمال خير من النقص ، ولأنه بغيض اليه أن يرضى بأسوأ الحالتين وأبخس الصفقتين ؟

إن الرجل الذى يقال له كن قويا لتصرع الأسود وتغلب الجبابرة وتكافح الأمراض ، لا يسألنا : وما جزائى على ذلك ... ؟ فلماذا يسألنا الجزاء اذا قلنا له : كن قويا لتصرع الشهوات والمطامع وتنهض بالفروض والعظائم ، وتقدر على المطلب الجسيم الذى يعجز عنه الآخرون ؟

إن الذى يترك الطعام الغث ليأكل الطعام المفيد لا ينتظر الجزاء على ما ترك أو على ما اختار ، فلماذا ينتظر الجزاء على اختيار المروءة وترك النذالة ، أو على اختيار الشرف وترك الضعة والخمول ؟

إنه يشترى الحرير بالثمن الغالى ويترك الكرابيس وان عرضت عليه بالثمن الرخيص ، فلماذا ينتقل إلى سوق المحامد والفضائل فيأخذ الحرير وهو ينتظر المكافأة على أخذه ؟ ويترك الكرابيس وهو ينتظر المكافأة على تركها والأنفة منها ؟

إنه لا يفعل ذلك إلا لسبب واحد : وهو أنه طفل الروح والأخلاق ، لا يميز بين الحسن والقبيح ، ولا يعرف النافع والضار ، ولا يدرى الذى هو أدنى والذى هو خير ، ولو درى ذلك لترك الأدنى لأنه أدنى وكفى ، وفعل الخير لأنه خير وكفى ، وكذلك يفعل الرجال كل يوم ، حين يميزون بين الغالى والرخيص ، و بين الحسن والقبيح ، و بين الرفيع والوضيع .

إنهم يطلبون الرفيع ويبذلون الثمن العزيز فيه ، ولا يطلبون الرفيع وينتظرون من يكافئهم على أخذه كما يصنع الأطفال : أطفال الروح والأخلاق .

وهنا يخطر على البال ذكر الثناء .

فيخيل إلى الأكثرين أن المرء مطالب باختيار المآثر لأنها تجلب له الثناء ، ومطالب باتقاء المعائب لأنها تعرضه للندم وسوء المقال .

وفى هذا الخاطر شيء كثير من الصدق والتعبير عن الواقع ، ولكننا إذا اكتفينا به لم يرتفع بنا كثيرا عن طفولة الروح والأخلاق .

لأن الثناء يأتى من ألسنة الناس ، وألسنة الناس لا تقول الحق فى كل حين ، بل الناس أنفسهم لا يعرفون الحق فى كل حين ، ولا يعرفون على الدوام ما هو جدير بالحمد وما هو خليق بالمذمة والانكار .

وقد ينعكس الأمر عندهم فيذمون الحميد ، ويحمدون الذميم .

وآية الناصح الأمين أنه يعلم الناس ما يعلمون ، وأنه يهديهم إلى الخصال التى يغفلون عنها ، ويحذرهم من العيوب والأخطاء التى يقعون فيها ، ولولا ذلك لما كان للناجحين الأمناء من عمل ، ولا كان للنوابغ المتقدمين على أزمانهم من ضرورة ولا منفعة .

فإذا اقتصر الرجل على ما يحمده الناس وما يذمونه لم يتقدم الناس ، ولم يكن لذلك الرجل من فضل عليهم ، ولا من أثر مشكور فى إصلاح شؤونهم وتبديل أحوالهم .

وإنما عليه أن يدعو الى الأفضل الأكمل وان ذموه ، وأن ينهاهم عن الأسوأ الأخس وان أحبوه ، وليس فى وسعه أن يفعل غير ذلك ان كان حقا على إيمان وثيق بما يراه ، وشعور عميق بما يدعو اليه .

إن الرجل الذى يستطيب النظر الى الحدائق والبساتين وينفر من الجلوس الى المستنقعات والبؤر الموبوءة لا يفعل ذلك لأن الناس يحمدونه أو يذمونه ، ولا لأنهم يرضون عنه أو يسخطون عليه ، فانه ليحب النظر الى الحدائق والبساتين وإن ذموه ، ويكره النظر الى المستنقعات والبؤر وإن شكروه .

كذلك يصنع الرجل الذى يسمو به الذوق ويملو به الروح حتى يدرك الفارق بين المنظر الجميل والمنظر القبيح ، إنه لينظر هنا أيضا الى الحديقة المزهرة وإن لم يغنم ثناء من ألسنة الناس ، وانه ليمرض هنا أيضا عن البؤرة الكريهة وان ساقته اليها ألسنة الناس ، لأنه يحتمل الأذى فى سبيل المتعة بالجمال ويحتمل الأدنى فى سبيل البعد عن القبح والدمامة ، وجزاؤه على ذلك أنه يرى الجمال ولا يرى القبح والدمامة ، وليس جزاؤه ما يقال أو ما لا يقال .

تلك هى رجولة الروح والأخلاق . وأما ما دونها فهو طفولة الانسانية التى تحتمل الرمد ولا تحتمل القطرة ، والتى تتداوى من الرمد بأجر ووعد ، وتقبل القطرة بأجر ووعد ، ولن تزال كذلك حتى تبلغ مبلغ الرجال .

* * *

حضرات السدة والسيدات

بل رحولة الروح والأخلاق هى أرقى ما ترتقى اليه الانسانية فى معارج الجمال .

وقد قال أبو العلاء :

ولتفعل النفس الجميل لأنه خير وأجمل لا لأجل ثوابه

وهكذا ينبغى أن يفعل كل إنسان تجاوز مرتبة الطفولة الى مرتبة النضج والكمال .

ينبغى أن يرتفع الانسان لأن الرفعة جميلة فى عينيه ، ولأن النفس مؤلمة لنفسه ، وكذلك يفعل كل إنسان فى المحسوسات كل يوم وكل ليلة ، فيأكل الشهى لأنه يحب مذاقه ، ويلبس الجميل لأنه يعجب بحسنه ، وينبذ المطعم الكريه لأنه لا يستطعمه ، ويعرض عن الملبس الزرى لأنه يأنف منه ، وليس لسبب غير هذا وذاك .

وإنما ترتقى الأمم والأفراد إلى هذه الدرجة الرفيعة حين ترتقى فى التمييز بين الأخلاق والأذواق كما تميز بين المحسوسات من المأكول والملبوس .

عندئذ يسهل الإصلاح فى الأمة ، ويسهل على المصلح أن يصلح منها إلى مواضع الاقناع .

فالأمم فى هذه الخصلة قسمان : أمم الأطفال وأمم الرجال :

أمم الأطفال هى الأمم التى تعودت أن تطلب الجزاء وراء كل نصيحة ، فاذا قام فيها المصلح الأمين شكت فيه ولم تفهم ما يريده إلا إذا وقع فى روعها أنه ينتظر الجزاء فى الدنيا والآخرة ، إما بالثناء وإما بجنات النعيم ، وهى تفهمه إذن على قدر ما تتصور من جزائه وجزائها ، لا على قدر الكمال الذى يدعو إليه ولا على قدر التمييز بين الصواب والخطأ وبين الرجولة والطفولة .

أما الأمم التى ارتفعت فى مراتب الرجولة فهى لا تستريب فى المصلح الأمين لأنها تجهل فائدته وجزاءه ، ولا يهمها إلا أن تميز كلامه لتعرف موقع الصواب فيه ، فاذا كان صوابا اتبعته وإن كان عظيم الكلفة عليها ، وإذا كان خطأ أنكرته وإن كان محببا إليها وميسورا لديها . كما يفعل طالب الصحة حين يميز بين الطبيب الصادق والطبيب الكاذب ، فيصغى إلى الطبيب الصادق وإن أمره بترك اللذيذ من الطعام وشرب الكريه من الدواء ، ويعرض عن الطبيب الكاذب وإن وصف له ما يرضيه ودله عليه فى حقيقة ما يشكوه .

والعبرة فى كل حال بالتمييز .

فلم نخطئ فى وصف الرجولة بأنها سن التمييز ، لأن الخطوة الأولى فى سبيل الاختيار الصحيح هى تمييز الفاضل من المفضول والراجح من المرجوح ، ثم تأتى الخطوة التالية و هى الأخذ بالراجح و إن صعب الأخذ به ، وترك المرجوح و إن تيسر الحصول عليه .

وكذلك رجولة الانسانية هى فى الواقع درجة التمييز بين الكمال والنقص مع غض النظر عن المكافأة والعقاب ، فمن ميز الكمال والنقص طلب الكمال و إن خسر فى سبيله ، وترك النقص و إن ربح من ورائه ، ولم يجد غرابة فى هذا وذاك ، ولم يساوره الندم بعد هذا وذاك .

* * *

حضرات السادة والسيدات

ما دام الإنسانُ يريد الخير فهو ينشده و يبذل فيه ثمنه و إن غلا ، وهو إذن رجل الروح والأخلاق .

وما دام الانسان يراد على الخير فهو لا ينشده إلا إذا عرف الجزاء عليه ، وهو اذن طفل الروح والأخلاق و إن جاوز السبعين والثمانين .

وخير ما نرجوه لهذه الأمة أن تحمل تكاليف الرجولة بغير نظر إلى جزاء ، فذلك فى النهاية هو أوفى الجزاء .

من يكون مبدؤه في الحياة الشرف والخير ، يستطيع أن يتحمل فى سبيلهما المكاره .
(بيتهوفن)